بين المُبدِع و.. مهنته

هل عمل المُبدع في مجالٍ بعيدٍ عن موهبته ضررٌ أم ضرورة ؟

" لو تناول الكاتب عمله كوسيلة للرِّزق، فسيضطرّ إلى الخضوع للسُّوق. ليعيش الإنسان يمكنه القيام بأشياء أخرى كثيرة: يعمل صحفيًا أو مُدرّسًا أو مُترجمًا... بالإضافة إلى ذلك، يرضى برفاهية الاستقلاليَّة"

الرِّوائي الروائي الصيني الحائز على جائزة نوبل عام ٢٠٠٠م

غاو كسينغجيان

في حوارٍ له مع الصّحفي رجاء النَّقّاش، تحدَّث أديب نوبل الرَّاحل (نجيب محفوظ) عن حياته الوظيفيَّة وأثرها على حياته الأدبيَّة قائلاً: "أعطتني حياتي الوَظيفيَّة مادّة إنسانيَّة عظيمة، وأمدَّتني بنماذج بشريَّة لها أكثر من أثر في كتاباتي، ولكن الوظيفة نفسها كنظام حياة وطريقة لكسب الرِّزق لها أثرٌ ضارٌ على الأدب، أو يبدو الأمر كذلك لي، فقد ابتلعت الوظيفة نِصفَ يومي لمدَّة سبعِ وثلاثين سَنة، وفي هذا ظُلمٌ كَبير، ولكن الوظيفة في الوقت نفسهِ علَّمتني النِّظام والحِرص على أن أستغلَّ بقيَّة يومي في القراءة والكِتابة، بل جعلتني هذه الوظيفة أستغلُ كُلَّ دقيقة في حياتي بطريقة مُنظَّمة، وعدم تجاهُل أوقات الرَّاحَة والتّرفيه، وهذا في تصوُّري هو أثرٌ إيجابيٌ للوظيفة في ظلِّ المُجتمع الذي نعيش فيه، فمن المُستحيل أن يتفرَّغ الأديب في بلادنا لعمله الأدبيِّ وحْده، ولو كانت أوضاعنا مثلما هو الحال في أوروبا، وصَدر لي كتابٌ مُتميّزٌ لتغيَّرَت حياتي، وكُنتُ استقلت من الوظيفة وتفرَّغتُ لِلعَمَل الأدبي، لأنَّ الكِتاب المُتميّز هُناك يُحقق إيرادًا يكفي لاتّخاذ مثل هذه الخُطوة".

بهذا الرَّأي سجَّل أديب نوبل شهادةً قيِّمة لتاريخ الأدب عن علاقة الحياة الوظيفيَّة بالإبداع الأدبي، وسلبيَّات الوظيفة وإيجابيَّاتها المُنعكسة على الأدب. فالمُبدِع، ذلك الإنسان المُرهف الحسِّ والمزاج، كثيرًا ما يضطر في وطننا العربي للعمل في مهنة بعيدة عن ميوله ومواهبه طلبًا للرزق، ما يُجبره على التعامل مع مُتطلَّبات وظيفيَّة جافَّة، والاختلاط بزُملاء ينتمي أكثرهم

لنماذج بشريَّة لا تتواءم مع خصوصيَّة طبيعته النّفسيَّة، عدا عن اضطراره في أحيانٍ أخرى للانصياع لرئيس عملٍ قد يكون مُتسلِّطًا، أو أكثر جهلاً، وأدنى إحسَاسًا، وأقلّ ثقافةً ومعرفةً ووعيًا منه، فيعيش صراعًا نفسيًا هائلاً يُمزِّق روحه بين مُحاولاته اليوميَّة للتكيُّف مع رتابة الوظيفة ومُتطلّباتها الإجباريَّة، وبين شغف الرُّوح للتحليق في ملكوت الإبداع، والانصياع لأمره دون شريك، وبهذا يتحقق أسوأ أشكال الهدر التنموي والإنساني والإقتصادي الذي قال عنه الإعلامي السعودي سليمان الهتلان: "من أسوأ أشكال الهدر أن ترى إنسانًا مؤهلاً مُبدعًا و قد زج به في الوظيفة الخطأ، تلك التي تحوِّله لاحقًا إلى"روتيني" يخاف من ظله ".

• • • •

كان قدر الرِّوائي المغربي أحمد الكبيري هو العَمَلُ مُديرًا لوكالة تجاريَّة بشركة اتّصال المغرب، ومن خِلال تجربته الواقعيَّة بين الوظيفة والإبداع أعرَبَ عن رأيه قائلاً:

"أن تشتغل بمجال لا عِلاقة له بميولاتك الإبداعية والفنية، أمرٌ له من التأثير السَّلبي والانعكاس النفسي مما يجعل العمليَّة الإبداعيَّة في حدِّ ذاتها مُهدَّدة بالتوقف. ويجعل المُبدع عُرضة للنسيان والغياب. لأنه ليس سَهْلاً أن يجد المرء نفسَه مُلتزمًا تِجاه عمله ومسؤولياته الأخرى في الحياة، بمنحها ساعات طويلة يوميًا من طاقته وجُهده كي يضمن له ولأسرته عيشًا كريمًا

ومُحْترَمًا، وفي نفس الوقت أن يجلس كلَّ مَسَاء ليُنصت إلى ذاته المُبدعة، والاسْتِماع إلى شياطينه وملائكته كي يُترجم ما خزنته حساسيته الفظيعة بداخله من مظاهر القبح والجمال ومتناقضات الحياة ومفارقاتها الغريبة.
لكن السُّؤال الذي يطرح نفسه هنا وبحدّة، هو : " ما هو البديل بالنسبة لُمبدع لا يستطيع أن يعيش من عمله الإبداعي؟ فإما أن يكون أو لا يكون".
ويُضيف الكبيري: "لقد أدركتُ في وقتٍ مُبكِّر بأننا في عالمِنا العربي ليس لنا خيارات كثيرة، فتعلّمت على الرّغم مني أن أحيا بمنطق المُقاوِم؛ ذلك المُقاوِم الذي ليس له من سلاح إلا أسطورته الشخصية وأحلامه المُشتعلة. فصِرتُ أعرفُ كيف أتأقلم مع منطق الظروف التي لا ترحم، بأن أكون قدر المُستطاع مُتعددًا، وأن أظل مُنفتحًا كإنسان وكذات على جميع الاحتمالات. بما فيها الأسوأ. والأهم، من ذلك هو تنظيم الأولويَّات، وتدبير الوقت، وتفضيل الإيجابي في هذا الزخم على ما هو مُحبِط وقاتل، كي نظلَّ على قيد الإبداع والحُضور، ونؤدِّي رِسَالتنا. ذلك هو قدرُنا ومنه نستمد تميُّزنا. والعبقريَّة هي أن تواصِل حيث توقف الآخرون".

بينما أكَّد الشّاعر السعودي زكي الصّدير أنَّ التفرُّغَ الكامل للعمل الإبداعي هو أمنية دائمة للمُبدِع، فقال: "من المؤكد أن المبدعَ كائنٌ يمجِّد الكسل، فمن خلاله سيأنس بالسكون والعزلة، لذا فهو يتمنَّى دائمًا ويحلم بتفريغه الكامل للعمل الإبداعي: شاعرًا وأديبًا ومسرحيًا وفنانًا، غير أن هذا الأمر سيبعده ويقصيه بشكل تدريجي عن الحياة اليومية بكل ما تحمل

من مشاهد فوتوغرافية صغيرة أو تجارب إنسانية كبيرة، هذه الالتقاطات هي حصيلة المبدع التي يتكئ عليها في بناء أعماله الأدبية والإبداعية، فمن دون هذا المخزون المتدفق بالتجارب والحياة لن يكون لكتاباته معنى حقيقيًا، إذ سيكون ساعتها مجترًا لتجاربه السابقة من غير تجديدها أو العمل على تأثيث أماكنه الشاغرة باشتغالات جديدة تتوسَّم العمل الجاد المرهون بتلمُّس الحياة بشكل يومي، وبهذا فأنا أعتقد أنَّ العمل اليومي الذي قد يمتهنه الكاتب غير المرتبط بموهبته سيهبه الكثير من الاقتراب من الحالة الإنسانية أيًا تكن معطياتها التي أوجدتها".

أمَّا الشَّاعر والرِّوائيُّ المصري محمَّد عبَّاس علي الذي اختارت له الأيَّام مهنة الهندسة الكهرُبائيَّة فقد شبَّه تمزُّق المُبدع بين موهبته وبين مهنته المُعاكسة لها بتمزُّق رجُلٍ بين زوجتين يميل لإحداهما دون الثَّانية؛ فقال: " يُعتبر عمل المُبدع في مهنة بعيدة عن موهبته حالة من الحالات التي تستوجب قدرة على التحمُّل والانقسام بين أضداد، بالضبط كأنك تعيش مع امرأتين كلتاهما شديدة الغيرة وعليك أن ترضيهما معًا فلا تندفع مع واحدة ضد الأخرى خاصَّة تلك التي يميل قلبك نحوها وتتجه روحك إليها حبًا ورغبةً وليس بحثًا عن تأدية واجب قد يكون ثقيلاً تفعله مرغمًا لكي تشعر أنك لم تقصِّر أو لكي تعيش. فالحياة ترغمنا في كثير من الأحيان على أداء أعمال رغمًا عنا فنقوم بها مُندفعين وراء إحساس بالمسؤولية ربما تجاه آخرين ليس لهم ذنب إلا أنهم مسؤولين منا".

أمّا عن الآثار الإيجابيَّة لتلك المهنة من وجهة نظره تتلخص في "اتساع مدارك الكاتب وقدرته على تصوير حالته وما يحيط به من عمل (مثل حالة يوسف إدريس) بقدرة ودقة وصف والغوص في أغوار قد لا يُدركها غيره نتيجة إطلاع عملي ونظري مما يجعله يتفوق في تلك الحالة فإذا كان في مجال عملي علمي وهوايته الأدب أجاد في الاثنين لحُبِّه للأدب أولاً ولدراسته العمليَّة ثانيًا. وقد وجدنا كثيرين يفعلون هذا، فهناك الطبيب (إبراهيم ناجي) وهناك المُهندس (علي محمود طه) وغيرهم الكثير.. أمّا من تبتل في محراب الأدب فقد انطلق بلا حدود مثل عباس العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم والدكتور يوسف إدريس".

▪ إبداع.. مِنْ رَحِمِ المُعاناة

مهنة التَّعليم كانت هي المصير المِهني للشّاعر والرّوائي المِصْري محمود الديداموني، والذي علَّق على هذه القضيَّة بقوله:" الكتابة في عالمِنا العربي قد يعتبرها الكثيرون ترفًا، خاصَّةً فيما يتعلق بالشعر والقصَّة والرّواية، ويبدو الأمر على أنه يتعلق في أذهانهم بالمادَّة أو المَال، والسُّؤال الذي لا يبرح ألسِنتهم – عندما يتجرأ أحدهم بالسُّؤال – فيطرحه دون تردد: "ماذا يُدِّر الأدب عليك من مال؟"..

هذا السؤال طالما أخذ مني الكثير من المُناقشات في مجتمعي على الأقل باعتباره النواة المعبرة عن الكل، أصبحت الآن أقول إنَّ الأدب يُدِّر مالاً وفيرًا، فيبتسمون ويسكتون... هم يعلمون تمامًا أنني أردُّ في سخرية".

ويسترسل مؤكِّدًا: "وليس للأديب إلا أن يلتحق بعملٍ يكفل له العيش الكريم ويغنيه عن ذلِّ السُّؤال، هو في الغالب يأخذ من وقته، بل إن الكاتب الأديب قد يَحْتال على وقت عمله في استباقه لتدوين فكرة خطرت له أثناء عمله، كما أن طبيعة العمل تختلف تمامًا في منح المِسَاحة للمُبدع في أن يُقدِّم تجرِبة مُختلفة عن غيره، فلو كان الأمر يتعلق بسوء المُعاملة في العمل حتمًا سيتأثر الكاتب بذلك، وللحقيقة فإن الأمر لا يكون بالسَّلب على طول الطريق في هذه الحالة، إذ قد يُخرج الكاتب معاناته عبر بوح شعري، أو رواية، أو قصَّة قصيرة تستمد بداياتها من الواقع ومن تلك المُعاملة ليُحلّق بنا – أي المتلقي – عبر فضاء من الخيال الخصب، ويكون المُنتج الأدبي النهائي مُميزًا ومُعبرًا عن تجرِبة حقيقية، تعبِّر في النهاية عن هذا العَالم.

وبالتأكيد فإن سوء المُعاملة قد يؤثر على بعض المُبدعين سلبًا، ويُمثل العمل عبئًا عليهِم فتتراجع طاقاتهم، خاصَّةً أولئك الذين يستسلمون للحياة، فالكاتب الحقيقي لا يتراجع عن مشروعه مهما كانت التداعيات أو المعوقات. يتأثر، لكن لا يتوقف. وقد يصيغ المأساة مثلاً لكتابةٍ مُبهرة".

ويستدرك الديداموني: "ولا يُمكن أخذ المسألة أيضًا على إطلاقها، فقد تكون الظروف قاهِرة، وربما تؤدِّي تلك الظروف للنيل من موهبة كبيرةٍ

كان من المُمكِن أن تقدم لفن الكتابة الكثير إذا ما توافرت لها الظروف المُناسبة للقراءة والكتابة. إن الكتابة الحقيقة غالبًا ما تخرج من رحم المُعاناة، حتى لو كان كاتبها يسكن القصور، ويعيش حياة الترف. فالكِتابة فن، والفنُّ يسْعى لمن يسْعى له، ولا يعترف بالمُستسلمين ولا بالمتكاسلين الذين يُعلقون إخفاقاهم على شمّاعات الظروف".

▪ عُمرٌ واحدٌ لا يكفي

الشَّاعر السّوري أسعد المصري ألقت به أمواج الحياة على شاطئ مهنة المُحاسَبة، ومن خِلال تجربته حدَّثنا قائلاً: "سأحاول أن أُلخص رأيي من واقع معاناتي الشخصية مع هذا الأمر في نقطتين رئيسيَّتين: الأولى هي أن المُبدع بطبيعته إنسان عاشق للحُريَّة، كاره للأسْرِ والقيود، مُحب للتغير ورافض للنمطية والتكرار في الحياة. والمهنة/الوظيفة بطبيعتها، سواء كانت قريبة من مجال اهتماماته أم بعيدة، تفرض عليه الكثير من القيود وتلزمه بالحياة على الوتيرة التي تتماشى مع طبيعتها لا مع طبيعته كمُبدِع، وهذا يُؤدي إلى ضغط نفسيّ هائل يعاني منه المُبدع بشكل متواصل ما بقيَ على هذه الحال".

ويُكمِل: "أما النقطة الثانية فهي موضوع الوقت. فكما هو معروف يأخذ العمل جزءًا كبيرًا من وقت الإنسان، خصوصًا في بُلدان كبلداننا العربية التي يضطر فيها مُعظمنا إلى العمل لأكثر من ثمانِ ساعات يوميًا لكي

يستطيع تلبية مُستلزماته المعيشية، وهذا يجعل المُبدع يعاني مَرارة رُؤية الوظيفة تسرق أيام عمره، وتستبيح جُلَّ وقته مُقابل تأمين لقمة العيش الكريمة فقط. ولا يتبقى للمبدع من وقت يقضيه في مُمارسة نشاطاته الإبداعية الضرورية لصقل روحه ودفعه معنويًا إلى الأمام في خضم الحياة إلا النــــزر اليسير، في الوقت الذي يشعر فيه معظم المبدعين أن عمرًا واحدًا لا يكفيهم لاختبار كل ما يُريدون اختباره في هذا الحياة. وإذا ما أضفنا إلى كل ذلك مهنة بعيدة كل البعد عن مجال اهتمامات المُبدِع، ومُديرًا غير متفهم، فإن حجم المعاناة يتضاعف مرَّاتٍ ومرَّات، وقد يؤدي إلى آثار حادة السُّوء على نفسيَّة المُبدع".

▪ الإبداع.. لا يُطعِم خُبزًا

تجربة الفنان التشكيلي الكويتي علي حسين الجاسم هي صورة عن تجارب عددٍ غير قليلٍ من المُبدعين العرب، وعنها قال: "لعلَّ تجربتي في عالم الفن التشكيلي مثالاً واضحًا للسُّؤال ..فمُنذُ الصِّغر كان الرَّسم موهبتي التي أشاد بها الأساتذة في مراكز الشباب والأندية الصيفية حتى وفقتُ يومًا للفوز بالمركز الأول على مراكز الكويت للشباب في مُسابقة فنية تحت عمر ١٢ عامًا، ولكن بعد أن تخرَّجت من الثانوية لم أجد التوجيه المُناسِب لحثي على تكملة مشوار دراسة الفن، وذلك لاعتقادٍ سائد بأن "الفن ما يوكّل عيش"، فالتحقت بكُليَّة التجارة لأدرُس إدارةَ الأعْمال بعد أن فقدت الأمل بدِراسة العِمارة، حيث لم توجد في الكُويت – آنذاك – كليَّة

للعِمارة أو تخصص الهندسة المِعمارية. وبعد التخرج التحقت بوظيفية إداريَّة حُكومية بعيدة كل البعد عن الفن والتشكيل حتى أصبحت هذه الوظيفة روتينًا مُملاً في حياتي".

ويُضيف: " لقد صار الفن التشكيلي هو وحده مؤنس ساعات الفراغ، فكان عطائي لا حدَّ له من خلاله، ليسدَّ بذلك النَّقص الذي فقدته يوم حُرمت دراسة الفن أو العِمارة".

▪ شللٌ عن العَطَاء

المؤلِّف السعودي (جليل حايك) يعمل في أحد التخصصات الهندسية، وكان للعمر الذي قضاه مع وظيفته أثرًا على رأيه الذي أفصح عنه بقوله: "المُبدع بشكل عام لا يُحب القيود في العمل، ولا يُحبِّذ أن يَكون رئيسًا أو مسؤولاً عن مجموعة. المُبدع يهوى العمل الانفرادي، ولكن يحدث أن يتوظف في مجال لا صلة له بمجال إبداعه على أمل التّخفيف من وطأة الحياة ومُتطلباتها فقط، فيفقد بهذا الكثير من التفاعُل مع عمله، وقد يُكلَّف بمهام وظيفيَّة تتطلَّب التسليم في وقتٍ مُحدد، ويُضطر للالتزام بضوابط معينة وقيود وظيفية مُحدَّدة، كالأوامر التي يرى أنه لا داعي ليُذكر بها دائمًا كل لحظة خلال اليوم الوظيفي، لأنه واعٍ لما سيفعله ويقوم به بلا توجيه أو مُراقبة مُستمرة، أو أن يتدخل أحد في طريقة عمله ورؤيته لما

يقوم به، فيحدُث صِدام بينه وبين نفسه، هل أستطيع الاستمرار في وظيفة كهذه؟ هل هي تناسب تفكيري ومُيولي وأهدافي؟ ".

ويؤكِّد حايك: "الوظيفة تقتل الإبداع.. الوظيفة - خصوصًا لو كانت غير متوائمة مع ميول المبدع- تدخله في حالة شلل عن العَطاء والتفكير وتدخله في دوامة الالتزام بالوظيفة أو النـــزوع للإبداع الذي سوف يحقق له نشوته وراحته النفسية، أما لو كانت وظيفة محبوبة لنفسه، وقادرة على خلق إبداعٍ جديد له، فسيكون لها دورها الإيجابيّ حتمًا، وربما فُتِحت له أبواب إبداعٍ جديدةٍ لم يكن يعلم بمقدرته على خوضها، والوظيفة تعطي للمبدع التجديد اليومي والمتنفس ليُجدد إبداعه لو كان يُحبها ويرتاح لها، وقد تهبه فُرصة لتنظيم الوقت وإبداع المزيد، والعكس صحيح".

في حين أفصح الروائي العراقي (علي عباس خفيف) عن جانب من همومه الروحية مع المهنة بلغته الأنيقة بقوله: "قد لا أجد من فائدة أو نفع يرتجى من العمل خارج حيز الاهتمام بالكتابة، في مهنة تبعدني تماماً عن ما تهفو روحي إليه كل لحظة. إن هموم استحصال (الرزق!) كما يقال عادة تكاد تقتل في الذهن القدرة على التناول. غالباً ما أجد نفسي بعد تعب الساعات العشر التي أمضيها في العمل، غير قادر على التركيز، خصوصاً وان هم الابداع، هو هم لا ينبني إلاّ على القلق. قلق الحياة. فليس الخيال شيئاً يمكن استحضاره متى نشاء. للخيال طقوسه وهي طقوس مليئة بالقدسية. قدسية المفردة، والجملة، والمعنى، والتركيب، والاختيار، بعيداً عن مفردات الصنعة من ثيمة، وحبكة، وما إليهما".

ويسترسل مكملاً: "في حقيقة الأمر؛ تتناثر الثيمات حين أجد نفسي متعبًا، ولا أجد ما يمكن أن يجعلني قادرًا على جمع شتات نفسي إزاء رغبة يغتالها التناسي أثناء ساعات العمل المتواصلة من أجل العيش. ياللعيش من مهنة قذرة. ومع هذه الشتيمة، لا أستطيع الفكاك منه، العيش اللعين.

حين أغرق في لجة العمل؛ وهي لُجة حقيقية لكنها داخل الروح؛ لا أعود أنا نفسي علي عباس خفيف، وإنما ينمسخ هذا الفرد إلى شيء، شيء فقط، إذ تتحول الكينونة إلى كائنٍ، وأيُّ كائن، كائنٌ لا يمكنه أن يشعر بلسعة واحدة من لسعات جنونه الأزلي الذي ما غازل روحَه شيءٌ مثله، بل ما مس روحه فرحٌ مثله أبدًا. فهل هناك عذابٌ أبشع و أكثر محنة من هذا العذاب؟".

يمزقني كل يوم مشهد الكتاب الذي لا أستطيع أن أنجزه. المخطوطة تدعوني ولا أعرف كيف أنجدها، أقدم لها قلمي بكل حياته وقدرته على الفرح، وأقدم لها الجنون الجميل. بينما الوظيفة تشهر سكاكينها كل يوم وتغرزها في إهاب مسراتي. وكثيراً ما أعلل النفس بإنجاز ما قررته، دون أن أستطيع ذلك، لأن العمل يقف حائلاً وهو يشهر لا مبالاته في قلبي وروحي."

بينما علّق القاص السّعودي (علي مُرتضى) الذي يعمل مُستشارًا إداريًا في القطاع الخاص بقوله: " هُناك العديد من الآثار السلبيّة للوظيفة على القاص، أبرزها هي تقمُّصه الرّوحي لشخصيّة من شخصيّات قصصه واضطراره في الوقت ذاته للتعايش مع مُتطلبات الحياة والوظيفة، إضافة إلى مُشكلة ضيق الوقت التي تزجّ به في صراعٍ حقيقي يؤثّر على إنتاجه في أحيان كثيرة".